المحاضرة السابعة: 7- الفينومينولوجيا

بعد النجاح الكبير الذي حققه المنهج العلمي مُمَثلا في العلوم الطبيعية في الواقع الأوروبي مع نهاية القرن التاسع عشر، و الذي أصبح مكسبا عظيما للعقل الأوروبي في سعيه إلى اليقين العلمي، بدأت النزعة التفاؤلية تتعاظم لدى الفلاسفة و العلماء على حد سواء. و بدأ يظهر للجميع أن هذا المنهج كفيل بتحقيق الموضوعية و بتقدم العلم، لأنه يهدف إلى بلوغ القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية. فيتحول الكيف إلى كم، ومن ثم يمكن التنبؤ بهذه الظواهر. وما شجّع على ذلك هو إمكانية إعادة الظاهرة الطبيعية على شكل مُصغّر في المختبر العلمي، و إخضاعها للقياس على نحو دقيق. و لعل هذا ما حفز العلوم الإنسانية التي كانت حتى ذلك الوقت تسبح في فضاء الأُطر العقلية و النظريات الفلسفية التي كثيرا ما تحددت بأهواء الفلاسفة و مزاجهم الشخصي. و قد سارع كثير من الفلاسفة إلى الإشتغال بالطريقة التي تمكّنهم من الإستفادة من منهج العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الإنسانية، وطموحهم الكبير في الحصول على قوانين مُفسّرة للظاهر الإنسانية، سواء في علم النفس كما تمثل في مختبر الدراسات النفسية مع "فونت" vont ثم "كوندياك" و "شاركو" و من تبع خطاهم. و في علم الإجتماع ظهر "دوركايم" وفكرته عن "تشييء" الظاهرة الإجتماعية و ضرورة إخضاعها للقياس و التكميم. وكان قبله" أوجست كونت" قد وضع قوانين تطور الفكر البشري التي أصبحت فيه المرحلة الوضعية آخر ما انتهت إليه البشرية، و هي التي تعبر عن حاضر الإنسان و عن عصر العلم و التجريب بعد تخطي المرحلة الدينية و المرحلة الميتافيزيقية إلى غير رجعة. لكن بداية القرن العشرين شهدت ظهور بداية الأزمة في العلوم الإنسانية بعد الدراسات التي قام بها "هسرل" و "برغسون" و التي بينت تميز الظاهرة الإنسانية عن الظاهرة الطبيعية من حيث الطبيعة. فالظاهرة الإنسانية أقرب ما تكون إلى الذات، ومن ثم ترتبط بما هو حيوي يتعسر قياسه، و يصعب عملية التنبؤ. وتشابك العناصر المكوّنة للظاهرة الإنسانية يطرح مشكلات إبستيمولوجية لا حصر لها في الدراسة. ومن جهة أخرى حاول بعض الفلاسفة أن يعودوا إلى المنهج الرياضي كونه أكثر العلوم دقة و يقينا. فاعتمد بعض الفلاسفة على المناهج الإحصائية بهدف بلوغ قوانين ذات لغة رياضية تتميز بالموضوعية و الشمول. و تسمح بالتنبؤ. لكنهم اصطدموا هم أيضا بمشاكل كثيرة تبّن لهم من خلالها أن الظواهر الإنسانية ظواهر حية يصعب دراستها بمنهج صوري محض. وهذه الأزمة هي التي اشتغل "هسرل" Husserl على توضيحها و تشخيصها، ثم البدء بإيجاد حلول مناسبة لها. لذلك جاء كتابه" أزمة العلوم الأوروبية" تعبيرا عن أزمة العلم و فقدانه لدلالته في الحياة. و هذه الأزمة هي التي أدت إلى حالة الإنقسام التي توجد عليها الفلسفة حاليا. واضطراب النشاط الفلسفي الذي انتهى هو الآخر إلى خلق رُكام من التآليف التي تفتقر إلى نظام داخلي يوفّر لها فضاء روحيا مشتركا. إن ما يلتقي اليوم هو الفلاسفة و ليس الفلسفات و هذا ما أراد هسرل تأكيده.إذن مؤسس علم الظواهر هو " إدموند

هسرل"Edmund Husserl الذي وُلد سنة 1859 في مدينة بروسنتس في إقليم مورافيا و توفي سنة 1938 في مدينة فرايبورج في جنوب غرب ألمانيا. بدأ دراسة الرياضيات في ألمانيا على يد الرياضي الشهير فايرشتراس، ثم وقع تحت تأثير فرانتسبرينتانو الذي وجّهه إلى دراسة الفلسفة، دَرّس كأستاذ في جامعة هله Halle سنة 1887 و جيتنجن سنة 1901و أصبح أستاذا في جامعة فرايبورغ حتى سنة 1928 وقد خلفه في هذا المنصب تلميذه الفيلسوف"مارتن هايدجر". أشهر مؤلفاته: فلسفة الحساب 1891، بحوث منطقية1900،أفكار عن علم ظواهر خالص و فلسفة ظاهرية 1913، المنطق الصوري الترنسندنتالي 1929، تأملات ديكارتية 1931، أزمة العلوم الأوروبية 1936، الفلسفة علما دقيقا و غيرها من الكتابات التي نشرت بعد وفاته.

تتكون كلمة فينومينولوجيا من مقطعينPhenomenaوتعني الظاهرة، وLogy وتعني الدراسة العلمية لمجال ما، وبذلك يكون معنى الكلمة العلم الذي يدرس الظواهر. والحقيقة أن كل العلوم تدرس الظواهر، لكن ذلك لا يعني أن كل العلوم فينومينولوجيا، لأن المقصود من الظواهر في مصطلح الفينومينولوجيا ليس ظواهر العالم الخارجي، أي الظواهر الطبيعية الفيزيائية، بل المقصود بالظواهر التي تدرسها الفينومينولوجيا ظواهر الوعي، أي ظهور موضوعات وأشياء العالم الخارجي في الوعي، وبذلك تكون الفينومينولوجيا هي دراسة الوعي بالظواهر وطريقة إدراكه لها وكيفية حضور الظواهر في خبرته. غير أن هناك علم آخر يدرس الوعي بالأشياء وطريقة إدراكه لها وهو علم النفس، أفلا يُفهم من ذلك أن الفينومينولوجيا إذن دراسة سيكولوجية للوعي ولكيفية إدراكه للأشياء؟ لا. لأن سيكولوجيا المعرفة تهتم بالحالات المعرفية باعتبارها حالات ذهنية، وترد هذه الحالات إلى الوظائف العصبية والسلوكية للمخ البشري، أما الفينومينولوجيا فليست مهتمة بما يصاحب عملية المعرفة من حالات ذهنية أو وظائف عضوية ترجع إلى الجهاز العصبي، بل بكيفية إدراك الوعي للموضوع ووصوله إلى معرفة موضوعية ويقينية حوله؛ أي بالاستعدادات المعرفية الموجودة لدى الذات الإنسانية والتي تُمكّنها من تأسيس معرفة يقينية، وهذه الاستعدادات ليست سيكولوجية، بل مرتبطة بالوعي الخالص قبل أن يتصل بأي خبرة تجريبية. لقد فهم هوسرل ومن خلال ما بيّنه في كتابه "أبحاث منطقية" أن البحث في أفعال الوعي هو فينومينولوجيا للمعرفة، ذلك البحث الذي يستند على مفهوم القصدية؛ لأن الوعي بالمعنى الفينومينولوجي هو الذي يتضمن القصدية، بمعنى احتوائه على إدراك قبلي للماهية من جهة توجّه أصلي نحوها، وكونه ممتلكاً الموضوعية باعتبارها محايثة له، وهذا ما لا يتوافر للوعي السيكولوجي. كما تطلب منه أيضاً التمييز بين الأفعال السيكولوجية للوعي من حيث أنها مصاحبة للمعرفة لكونها سلوكاً وظيفياً يستجيب لتلقي الإدراكات الحسية، وبين الأفعال الفينومينولوجية أو القصدية للوعي والتي ليست مجرد مصاحبة للمعرفة سلوكياً بل هي التي تؤسس المعرفة قبلياً من حيث هي استعدادات. وقد جاء هوسرل بكل هذه التمييزات في سياق

نقده للنزعة السيكولوجية في المنطق والتي ظهرت في المذاهب التجريبية الإنجليزية: لوك وهيوم وجون ستيوارت ميل، وفي الاتجاه النفسي للكانطية الجديدة.

والنزعة السيكولوجية في المنطق هي النزعة التي ترد مبادئه وقوانينه إلى الوظائف السيكولوجية للذهن، وتنظر إلى عمليات الاستدلال والحكم على أنها عمليات نفسية وتدرسها من وجهة نظر وظيفية وسلوكية. والنزعة السيكولوجية بذلك تنكر أن يكون للعمليات المنطقية مجالاً مستقلاً عن مجال الحياة النفسية للنوع البشري وجهازه العصبي السلوكي. وبذلك تقف عقبة في طريق البحث في المجال الفينومينولوجي للخبرة، وهو المجال القبلي الذي تتأسس فيه الموضوعية باعتبارها قصدية للوعي. وفي شرحه للنظرية التي ترد المنطق إلى علم النفس يذهب هوسرل إلى أن هذه النظريات تستند على كون الاستدلال والحكم أفعال ذهنية تحدث في سياق الاستجابة السلوكية للجهاز العصبي، وبالتالي فهي تنتمي إلى مجال دراسة علم النفس، إذ أن مجاله يضم كل ما ينتمي للذهن من حالات وأفعال.

ويردّ هوسل على النظريات السيكولوجية بقوله إنه من الصحيح أن سيكولوجيا المعرفة تتناول أفعال الحكم والاستدلال لكونها أفعالاً ذهنية، إلا أن تناولها لها يختلف عن تناول المنطق؛ فالقوانين التي يبحث فيها علم النفس تختلف عن القوانين المنطقية، ذلك لأن علم النفس يبحث في الصلات التي تربط بين الأفعال الذهنية وبعضها بطريقة سببية بناء على النظام السلوكي للجهاز العصبي؛ أما القانون بالمعنى المنطقي فيختلف عن التفسير السلوكي الذي يسعى إليه علم النفس .فالقانون بالمعنى المنطقي هو تعبير عن محتوى الصدق المتضمن في التصورات والأحكام والاستدلالات، وهو يبحث عما يجب أن يكون عليه التفكير كي يكون منطقياً؛ ومن هنا يأتي طابعه المعياري، ذلك الطابع المختفي تماماً من الدراسة السيكولوجية للتفكير.

كما يذهب هوسرل إلى أن قوانين المنطق تتمتع بصحة مطلقة ونهائية في حين أن قوانين علم النفس تجريبية واحتمالية وتعتمد على التعميم من انتظامات تجريبية، وعلى الربط بين أحداث نفسية باعتبارها أجزاء في منظومة سلوكية. ولا يمكن أن تؤسس قوانين المنطق على مثل هذه الأسس. كما أن القوانين السيكولوجية المستخرجة من تعميمات لا تتمتع إلا بصحة احتمالية وشرطية، في حين أن قوانين المنطق قبلية. صحيح أن استدلالات المنطق تعتمد على عمليات ذهنية، لكن لا يعني ذلك رد قوانين المنطق واستدلالاته إلى علم النفس، ذلك لأن هوسرل يميز بين السياق السلوكي الذهني الذي يحدث فيه فعل منطقي معين، و بين محتوى الصدق الذي يتضمنه هذا الفعل المنطقي والذي يرجع إلى فعل خالص للوعي. كما يميز هوسرل بين السياق السيكولوجي الذي يمكن أن تظهر فيه قوانين المنطق وتحدث فيه الاستدلالات المنطقية، وبين التبرير القبلي لهذه القوانين. وفي يرى أنه لا شك أن معرفتنا بالقوانين المنطقية باعتبارها أفعالاً ذهنية تفترض خبرة الأفراد، ولا شك أن لها أساساً في الحدس العيني. لكن يجب ألا نخلط بين الفروض السيكولوجية لمعرفة قانون ما وبين

الفروض المنطقية والأسس والمقدمات الضرورية لقانون ما؛ كما يجب ألا نخلط بين الاعتماد السيكولوجي والتبرير المنطقي.. كل المعرفة تبدأ مع الخبرة لكنها لا تنشأ عنها.

ونلاحظ أن العبارة "كل المعرفة تبدأ من الخبرة لكنها لا تنشأ عنها" هي ترديد حرفي لنفس العبارة الواردة في مقدمة "نقد العقل الخالص" لكانط ويقصد هوسرل بذلك، ومن قبله كانط أيضاً، أن الخبرة مرتبطة بالفعل بالتجربة بتعبير كانط، أو بالسياق السيكولوجي لظهورها بتعبير هوسرل، لكن لا يعني ذلك أنها تنشأ بالكامل عن التجربة أو عن السياق السيكولوجي، ذلك لأن لها أصلاً قبلياً. إن الترديد الحرفي من قبل هوسرل لعبارة كانط يجعلنا نكتشف التشابهات العميقة بينهما ونضع أيدينا على اتفاق عام بين فينومينولوجيا هوسرل والإبستيمولوجيا الكانطية. بل هناك من يرى أن فكرة القصد في حد ذاتها فكرة كانطية.

ومن بين المذاهب التي انتقدها هوسرل لوقوعها في النزعة السيكولوجية التجريبية الإنجليزية وخاصة فلسفة لوك و فلسفة هيوم .وتمثلت النزعة السيكولوجية لديهما في رد المعرفة إلى التجربة، وخاصة إلى انطباعات الحواس، وفي معاملة كل ما يدركه العقل على أنه نتيجة انطباعات حسية، وبذلك فسرا المعرفة تفسيراً سيكولوجياً. كما نظرا إلى الفكرة على أنها ذات أصل انطباعي وتجريد من قبل الذهن لهذه الانطباعات. كما ذهب هوسرل إلى أن لوك قد خلط بين عملية التمثيل والموضوع المُمَثل، بحيث أن عملية التمثيل لدى لوك تكون حسية وانطباعية مثل الموضوع الحسي المنطبع بالضبط. ويؤكد هوسرل، على العكس، أن عملية الإدراك الحسي لا يلزم عنها بالضرورة أن يكون الموضوع مدركاً حسياً. فمن الممكن أن يكون هناك شئ موضوع للإدراك الحسي إلا أن حقيقته لا تكون في الإدراك الحسي بل فيما يشترك فيه من كليات مع موضوعات أخرى غيره، وبذلك تكون حقيقة الإدراك الحسي في الكلي الذي يتضمنه لا في الفردي أو الجزئي الحاضر أمامه. ذهب لوك إلى أنه طالما ظهر الموضوع في إدراك حسي فمعنى ذلك أنه موضوع مدرك حسياً ولا شئ أكثر من ذلك؛ وهنا ينتقده هوسرل ويقول إن حضور الموضوع في إدراك حسي لا يجعل حقيقته حسية أو تجريبية، لأن الكلي والنوعي حاضر في الإدراك الحسي الجزئي لكنه لا ينتمي إلى التجربة بل هو ذو طبيعة قبلية. ويدلّل هوسرل على صحة نقده بقوله: "نتكلم أحياناً عن اللون والخشونة والشكل قاصدين صفات موضوعية (كلية)، وأحياناً أخرى قاصدين الإحساسات". لم يميز لوك بين هذين المعنيين للون: اللون كإحساس واللون كصفة موضوعية كلية، وذلك لأنه ينظر إلى الصفات الكلية على أنها تجريد في الذهن فقط، أي على أنها كيانات سيكولوجية أو تعبيرات لغوية وليس لها وجود مستقل، أي وجود قبلي بالمعنى الذي يقصده هوسرل، وهو في حقيقته القبلي بنفس المعنى الذى يقصده كانط .ويطلق هوسرل على نظرية لوك وهيوم في المجردات "إحالة سيكولوجية للكليات"، ويقصد بذلك أن لوك نظر إلى الكليات على أنها كيانات ذهنية داخل العقل وليس لها حقيقة مستقلة عن التجربة. إذ يذهب لوك إلى أن المجردات موجودة بفضل قدرة العقل على التجريد، أي

التعميم من الجزئيات وإدراك المشترك بينها وتسميته. الكليات وفقاً للوك وهيوم هي مجرد أسماء أو تعبيرات لغوية، وبذلك عرف مذهبيهما بالإسمي Nominalism:أما هوسرل فيذهب إلى أن للكليات وجوداً مستقلاً من نوع خاص، وحجته في ذلك أنها موضوعات للإشارة والدلالة، أي موضوعات يقصد إليها الوعي كما يقصد إلى الجزئيات تماماً.

كما يهاجم هوسرل النزعة السيكولوجية التي ظهرت في المذاهب المعاصرة له من منطلق أنها جميعاً متأثرة بهيوم، سواء نظرية جون ستيورات ميل أو إرنست ماخ؛ هذا بالإضافة إلى أن النزعة الوضعية في تفسير منهج العلوم الطبيعية وخاصة لدى ماخ هي ذاتها نزعة سيكولوجية، لأنها ترد الموضوعات الفيزيائية إلى إحساسات أو بيانات الحواس. ويذهب هوسرل إلى أن هذه الاتجاهات لم تستطع أن تتجاوز الإطار السيكولوجي نحو المجال الفينومينولوجيالترانسندنتالي، ولم تستطع أن تدرك أن الموضوع ليس مجرد إحساسات بل هو يتضمن كذلك الكليات والقبليات التي لا ترجع إلى الخبرة التجريبية. ويرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى أن تلك الاتجاهات لم تميز بدقة بين السياق السيكولوجي لظهور الخبرة وأساسها القبلي المتمثل في استعدادات معرفية لدى الذات. ونلاحظ هنا كيف أن ذلك الأساس القبلي الذي ينظر إليه هوسرل على أنه هو المجال الفينومينولوجي هو نفسه الأساس القبلي الترانسندنتالي عند كانط.

كما يُحذّر هوسرل من مثالية زائفة يمكن أن تؤدي إليها النزعة السيكولوجية، وهي مثالية تظهر لدى بركلي والماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر؛ إذ ترد هذه المثالية الكليات إلى الذات، لكن لا الذات المعرفية بل الذات السيكولوجية. ويدعو هوسرل إلى مثالية أخرى فينومينولوجية لا ترد الكليات إلى وعي سيكولوجي بل إلى وعي فينومينولوجي قبلي، وعي يدرك الكلي في حدس مباشر. وتتمثل النظرة العامة لهوسرل إلى النزعة السيكولوجية وفلسفتي لوك وهيوم في أنها تعبير عن نزعة نسبية شكية. تتمثل في الشك في إمكانية تأسيس أي نظرية متعلقة بالمعرفة على أسس من اليقين الذاتي، أي الشك في إمكانية حدوث ارتباط أصيل، منطقي وترانسندنتالي، بين الذات العارفة وموضوع معرفتها غير الارتباط السلوكي السيكولوجي، والشك في إمكانية العثور على أسس للموضوعية في الذات العارفة، لأن الوعي السيكولوجي لا يمكنه أن يؤسس الموضوعية أبداً، بل هو مجرد سياق تظهر فيه الموضوعية ولا تتأسس قبلياً وعلى نحو ضروري. فالموضوعية وفق النظريات السيكولوجية في المعرفة ما هي إلا صفة تخص الأشياء، بحيث تتمثل المعرفة الموضوعية في التلقي السلبي من قبل الذات؛ أما الموضوعية من وجهة النظر الفينومينولوجية، ومن وجهة النظر القبلية الترانسندنتالية أيضاً، فهي علاقة بين الذات وموضوعات معرفتها، أي الذات وتمثلاتها، و هي ليست موضوعية خارجية تتلقاها الذات في سلبية بل هي موضوعية يؤسسها الوعي الخالص نتيجة أنشطته وأفعاله. وعندئذ يصبح الوعي الخالص مطلبا للذات العارفة التي تريد أن تصل إلى ماهية الموجودات.

قد يكون المبدأ الأساسي في منهج هسرل هو أن نتجه إلى الأشياء نفسها مستبعدين كل ما لدينا من نظريات سابقة متعلقة بالواقع. ومعنى هذا نتجه مباشرة إلى الكشف عن عالم الظواهر من خلال الوصف. ويقوم هذا المنهج الذي يعرف عند هسرل "بالرد الظاهراتي" أن نضع بين أقواس العالم الطبيعي الخارجي الممتد في المكان و المتوالي في الزمان، ويرى بعض الفلاسفة أن هذا النوع من الفينومينولوجيا، أو أن هذه الفكرة مجرد تأملات ديكارتية بطبعة جديدة، أي أنها هي الشك عند ديكارت، لكن هذا ليس صحيحا. فإذا كان ديكارت ينطلق من الشك، وإذا كان هذا الشك الديكارتي يطال وجود العالم فإن هوسرل ينطلق من "الإيبوخي" أي من التعليق، أي وضع العالم بين قوسين للإمساك بالشعور، ليتمكن بعد ذلك من نزع الأقواس عن العالم ودراسته كموضوع شعور. وإذا كان الحدس الديكارتي هو أساس حدس الكوجيتو، فإن الحدس الهوسرلي هو فضلا عن ذلك إنصات إلى الأشياء ذاتها بالعود إليها. كما أن مدلول الأشياء لا يعني، عند هوسرل، الموضوعات الحسية بمدلولها الوضعي، بل الشيء عند هوسرل هو الظاهرة ومحتواها العقلي أي الظاهرة والماهية. يقول هسرل:"هناك أسباب وجيهة تجعلني الآن أفسح المجال لمحاولتي تقديم تأويل دقيق لا يكرر ما يقوله ديكارت بل يَستخرج ما كن يكمن بالفعل في تفكيره، ثم يميز ما كان واعيا به زما أخفته عنه أو دسته في أفكاره اعتقادات تلقائية معينة لكن جد طبيعية. إنها ليست بقايا لتقاليد سكولائية، ليست أحكاما مسبقة عارضة تنتمي لزمانه، بل اعتقادات تلقائية تعود لآلاف السنين لا يمكن تخطيها عموما إلا بواسطة إيضاح كامل و بواسطة تفكير ما هو أصيل في أفكاره إلى النهاية". تعليق الحكم يعني أن نُنَحّي جانبا كل ما حصلنا عليه من خبرات و آراء صادرة عن الحياة اليومية، أو عن العلم أو حتى عن مجال العقيدة الدينية. وأن نتخلص من كل المشاكل الزائفة و التصورات الخاطئة التي تلقيناها من الماضي، و أبعد من ذلك نتخلص من الأحكام السابقة التي من شأنها أن تعوق تقدم الفكر الفلسفي. و حينها لا يبقى أمامنا سوى الشيء المعطى مباشرة و هو فقط ما ينبغي أن نتكلم عنه.

الشعور أو التجربة أو الحالة العقلية الإدراكية لها طرفان، أحدهما هو الذات و الآخر هو الموضوع، أي يوجد على الدوام شيئان: حركة عقلية و موضوع تقع عليه هذه الحركة، و رابطة تربط بين الإثنين، لذلك فالشعور عند هسرل هو دائما شعور بشيء. و تحصل عملية البحث الظاهراتي بأن يحصر الإنسان جميع انتباهه في كل حركة عقلية و يشاهد الموضوع و الرابطة بين الذات و الموضوع، أي يشاهد العاقل و المعقول معا. أي أن ما سيظهر له ليس هو العالم بل "معنى" العالم، لذلك يمكن القول أن علم الظواهر هو بحث عن "المعنى" بالدرجة الأولى. وبعبارة بسيطة أنّ الإنسان يعلّق الحكم ليتحرّر من الإقتصار على العالم الخارجي الواقعي لينفتح على تيار المَعيش، أي ما يعيشه الوعي من مدرَك حيّ و طارئ و متجدّد في تيار أو حركة أو سيلان لا ينقطع. والفكر هو دائما فكر في شيء، أي أنهما يقصدان شيئا و هذا هو معنى القصدية أو الإحالة. و تُعرف عملية تعليق الحكم عند هسرل

بـ" الأبوخية" يقول هسرل:" بواسطة الأبوخيةالظاهرياتية أردّ أناي الإنساني الطبيعة و الحياة النفسية- وهما ميدان التجربة النفسانية الباطنة- إلى أناي المتعالي الظاهرياتي. و العالم الموضوعي الذي يوجد بالنسبة إليّ، هذا العالم الموضوعي بكل موضوعاته يستقي من ذاتي، كما قلت انفا- كل المعنى و كل القيمة الوجودية التي له بالنسبة إليّ، إنه يستقيها من أناي المتعالي الذي تكشف عنه الأبوخيةالظاهرياتية المتعالية".